الباب الأول

إحياء التراث

في سنة ١٩٤٩ طلب إلى أم كلثوم في مقام الاحتفال بإحياء ذكرى سيد درويش أن تغني بعض ألحانه فاعتذرت ثم لم تكتف بالاعتذار بل قالت في خبث ذكي إن ألحان سيد درويش يطلب تأديتها من مطرب رجل لا من مطربة سيدة[٣].

وفي عام ١٩٦٨ قيل إنها وافقت على الاشتراك في فرقة الموسيقى العربية فهلل عُشّاق سيد درويش لهذا النبأ، وقالوا: ستخلد أغاني سيد درويش الشعبية إذا غنتها أم كلثوم، كما خلدت الأغاني الشعبية الإيطالية عندما غناها المطرب الإيطالي العظيم كاروزو [٤].

وفي حديث صحفي أدلت به السيدة أم كلثوم للكاتب الصحفي الكبير رجاء النقاش قالت: إن سيد درويش فنان عظيم، ولكنني أعتقد أن تراث سيد درويش يحتاج إلى مجهود كبير لتقديمه، وعرضه في صورة تليق بهذا الفنان الكبير[٥].

والمعلوم أن فيروز – وحدها – قامت بهذا المجهود العظيم لتقديم تراث سيد درويش فغنت (زوروني كل سنة مرة) وهي طقطوقة قدّمها سيد درويش لأول مرة سنة ١٩١٤، وقيل إن «حامد مرسي» غناها في الإسكندرية لأول مرة سنة ١٩١٧، ويتميز لحنها القديم بالشجن والطرب والإيقاع المتهادي، وهي أغنية مأساوية لشاب يُحتضر يدعو فيها أحبّاءه إلى زيارة قبره مرة في السنة، وقد غنتها فيروز بأسلوب جديد أوبرالي إلى حد ما، وقريب نوعًا من أسلوب (نانا موسكوري) في الغناء في ارتفاع الصوت وَحِدَّته والانتقال به إلى الدرجات

(3) دكتورة / نعمات أحمد فؤاد – أم كلثوم وعصر من الفن – الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٨٣، ص ٢٧٩.
(4) المرجع السابق، ص ٣٤٧.
(5) لغز أم كلثوم – تأليف الأستاذ/ رجاء النقاش، ص ٤٢.

الدنيا وإطالة المد، و (زوروني) في الأصل أغنية سورية أخذها ومصّرها سيد درويش، وعدَّلها بعدما درس الموسيقى في سوريا.وفي رواية أخرى أنها من تأليف الشيخ يونس القاضي، وقيل إنها من تأليف بديع خيري.

وعن إحياء التراث، وتراث سيد درويش على وجه الخصوص قال الأستاذ عاصي رحباني في سهرة لإذاعة صوت العرب عام ١٩٥٦ أجريت في منزله في أنطلياس:

«نصرف جهدًا كبيرًا و وقتًا طويلًا لإعادة اكتشاف الأعمال الغنائية القديمة، من الموشحات أو الفلكلور الشعبي.. ومن أحب الأعمال إلينا، أعمال السيد درويش، هو حقًا إنسان عظيم وعبقري؛ استطاع أن يظهر الأغنية المصرية في أبهى حُلّة. واليوم نحاول توزيع ألحانه وإظهارها ضمن إمكانيات العصر الحديث؛ أي الأوركسترا الضخمة والكورس الكبير، لكن مع الإبقاء على الطابع الشرقي للأغاني، وأن تكون الأوركسترا عنصرًا لتقوية الشخصية المصرية في الأغنية، ومثلًا على ذلك أغنية «زوروني كل سنة مرة» من الأغاني الناجحة جدًا في لبنان.»

كما قدمت فيروز (الحلوة دي قامت تعجن) و (طلعت يا ماحلا نورها) ودور (أنا هويت) من مقام (حجاز كاركورد) في مسرحية (يعيش يعيش) سنة ١٩٧٠ والملفت أنها لم تلبنن هذه الألحان رغم توزيع الأخوين رحباني الموسيقي لها بل التزمت بمصريّتها، وأضفت عليها مذاقًا فيروزيًا خاصًا.

كذلك قدمت فيروز لسيد درويش لحنًا خالدًا هو طقطوقة (أهو ده اللي صار)، من مقام (حجاز كار) وقد حضرتُ حفلها تحت سفح (أبي الهول) سنة ١٩٨٩ وشهدتُ التصفيق الحاد المتواصل حين وصلت إلى مقطع (مصر يا أم العجايب... شعبك أصيل).

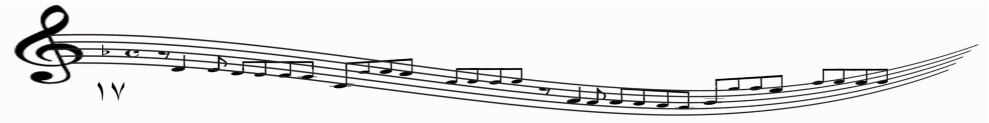

وجاء أداؤها الرائع لهذا اللحن إضافة عظيمة لما قام به المؤلف الموسيقي الروسي سيرجي بالاسانيان حين كان أستاذًا بكونسرفاتوار القاهرة إذ اختار هذا اللحن وكتبه بهارمونيات للبيانو ونشر في مجموعة مقطوعات للبيانو مستوحاة من ألحان مصرية، وما كتبه أيضًا المؤلف الموسيقي المصري راجح داود من نسخة من (أهو ده اللي صار) للأوركسترا الوتري، وعزفه أوركسترا وتريات الكونسرفاتوار في جولاته الأوروبية في السبعينيات بنجاح.

وفي خلال زيارة فيروز لمصر سنة ١٩٨٩ والتي قامت فيها بإحياء ثلاث حفلات أدلت بحديث إذاعي للإعلامية الكبيرة آمال فهمي حين سألتها عن سر غنائها العديد من ألحان سيد درويش فقالت: إنه نبع إلهام للفنانين.

وحين قدم عبد الحليم حافظ أغنية (يا سيدي أمرك) سخرية من أغاني التراث القديم واستهزاءً بها، كانت فيروز قد بدأت تحمل على عاتقها مهمة وعبء إحياء هذا التراث..

فقدمت من التراث قصيدة (يا جارة الوادي) شعر أمير الشعراء أحمد شوقي، ولحن موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب الذي قدمت له (خايف أقول اللي في قلبي) التي يعشق مؤلفها الشاعر السفير/ أحمد عبد المجيد أداءها إياها، ويفضله على كل ما عداه كما أكّد غير مرة في أحاديثه الإذاعية والصحفية.

وقد شحذت فيروز عبقريتها الغنائية وذكاءها الفني، ومقدرتها على التحكّم في أوتار ونغمات صوتها البديع فأخرجت التفاصيل الدقيقة للحركات الصوتية التي أرادها الموسيقار محمد عبد الوهاب في هذين اللحنين ببراعة متناهية، وفي ذلك يقول: «السيدة فيروز أخذت مني يا جارة الوادي، و (خايف أقول اللي في قلبي)، فأدت الأغنيتين بشكل رائع، وأنا حققت

ما أصبو إليه.. وهو إعادة تقديم عملين بصوت المطربة العظيمة التي يحبها كل الناس في لبنان والبلدان العربية، وأكون بذلك ذَكَّرت الجيل القديم بالأغنيتين ليسمعهما من يحب عبد الوهاب وفيروز».

ويدخل في هذا المقام بالطبع ما قامت به فيروز من إحياء لفن الموشح القديم بغنائها العديد من الموشحات القديمة بإبداع يعز نظيره وإتقان وإجادة، فأنقذت هذا القالب الغنائي من الاندثار على نحو ما سيأتي في هذه الدراسة تحت عنوان (الموشح).

ولا ينسى المستمعون أداءها المتميز لقطع غنائية من الفلكور القديم مثل (مرمر زماني) و (يا من يحن إليك فؤادي).